دلالة الانزياح

أ. ملاك حسن القاضي

قسم اللغة العربية وآدابها كلية الآداب / الخمس/ جامعة المرقب

الملخص:

إنّ النص القرآني أسلوب متفرد في نظم تراكيبه، إذ لا نجد فيه لفظاً ينزاح عن موقعه أو دلالته إلا لغرض بلاغي يخدم المعنى ويثري الدلالة بحسب السياق الذي ورد فيه، فكان في كثير من مستوياته انزياحاً عن اللغة المعهودة، ولكنه كان انزياحاً معجزاً يؤسس جمالية القدرة على مفاجأة المتلقي وإثارة ذهنه.

فالانزياح يقوم على استبدال المعنى الحقيقي أو السطحي للفظة، بالمعنى المجازي العميق وينتج عن ذلك ألوان بيانية مختلفة: كالمجاز والاستعارة والكناية وغيرها.

وهذا الأسلوب غير المباشر حاضر في النص القرآني، فقمنا بهذه الدراسة لنضع أيدينا على بعض مواطن هذا الانتقال الدلالي، والوقوف على العلاقة بين المعنى الأول الظاهر والمعنى الثاني العميق.

ونهدف من وراء هذه الدراسة إلى تحديد المعنى وفهم خفاياه وأسراره، وإبراز دور التعبير المجازي القرآني في الإقناع والتأثير في المتلقي.

الكلمات المفتاحية: انزياح ـ دلالة ــ تركيب ــ نص قرآني.

Abstract

The quranic text has a unique style in its installation systems,in which it finds a word that departs from its position or connotation only for a rhetorical purpose that serves the meaning and enriches the significance according to its race. At many levels it was departure from the usual language, but it was a miraculous departure that established the aesthetic of being able to surprise the recipient and raise his mind.

Displacement is based on replacing the true or superficial meaningof the word in a profound metaphorical sense,resulting in different graphic colors:metaphor,metaphor, writing, etc.

This indirect method is present in the koranic text. We have done this study to put our handson some of the areas of this semantic transition and to see the relationship between the apparent first meaning and the deep second meaning.

From this study,we aim to identify meaning and understand its invisibility and secrets,highlighting the role of koranic figurative expression in persuasion and influence in the recipient.

Keywords:displacement- indication- composition- koranic text.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن الله – سبحانه وتعالى – ختم الرسالات السماوية برسالة محمد – صلى الله عليه وسلم – وهي رسالة الإسلام التي جعلها الله عامة لكافة البشر، ووضع لها دستوراً يرسم معالمها ويوضح مناهجها من خلال القرآن الكريم الذي شرف الله به لغة العرب، فأنزله بلسان عربي مبين، حيث قال جل شأنه: {إنا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تعقلون} [الزخرف: 2]

وقد اشتهر العرب منذ القدم بالفصاحة والبلاغة، وبلغت لغتهم أقصى درجات الرقي، وأصبحت اللغة عندهم من أَجلّ مواطن عزهم، وأبرز مكامن فخرهم، فجاء القرآن الكريم معجزاً بلفظه ومعناه ونظمه وأسلوبه، متحدياً العرب جميعاً في مكمن قوتهم وموضع فخرهم، ونستطيع من خلال دراسة علوم البلاغة المختلفة أن نلتمس مواطن الجمال في لغة القرآن ونكشف أسرارها، فالبلاغة بفروعها المختلفة من أجلّ العلوم وأعظمها بعد علم العقيدة والشريعة الإسلامية، التي يتوصل لمعرفتها واستنباطها عن طريق كتاب الله تعالى وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم- بقراءته ودراسته وفهمه والتأمل في معانيه وعقائده وأحكامه.

فتركيب النصوص لا يخضع بطبيعة الحال إلى أثر المفردة في السياق فقط، بل إن للجملة أثراً مماثلاً في التشكيل التعبيري، فالجملة تكون أيضاً من ضمن التركيب الذي يكوّن النص، فهو يشتمل على الحرف والكلمة والجملة، فباشتماله على الجملة لا يكون من جملة واحدة فقط، بل من جمل عدّة تسهم في إنشاء الخطاب القرآني.

كما أن التنوع في الخطاب للمسلمين ولغيرهم، جعل النص القرآني ينفتح على أساليب عدّة قائمة على تنوع وتعدد في الدلالات التركيبية، ذلك أن المتلقي ينتمي إلى فصاحة وبلاغة تسهم في رفده بأية فكرة أو مقولة تطرح الإعجاز القرآني كما كان ذلك من الوليد بن المغيرة.

إن البلاغة العربية مرت بمراحل عدّة منذ بداية ظهورها في القرن الثاني الهجري إلى أن وصلت إلى مرحلة النضج والاكتمال على يد عبد القاهر الجرجاني (المتوفى سنة 471) الذي وضع أسسها وأرسى قواعدها من خلال نظرية النظم في كتابيه (دلائل الإعجاز – أسرار البلاغة).

فالقرآن الكريم معين لا ينضب للدراسات البلاغية رغم كثرة البحوث والدراسات والكتب والمؤلفات التي تناولت القرآن الكريم وإعجازه البلاغي، وسأحاول إن شاء الله تعالى بذل جهدي في الرجوع إلى هذه الدراسات والاستفادة منها في استخلاص اللطائف القرآنية وكشف بعض وجوه أسراره البلاغية، من خلال سياقها في التعبير القرآني الذي ليس بمقدور الطاقة البشرية أن تفيه حقّه من البحث والدراسة مهما أوتي المرء من علم وإلمام بعلوم

البلاغة وفنونها؛ ﴿لأن النظر في التعبير القرآني لن يكون في حقيقته نظراً في مفردة بل نظرٌ في كلمة نورانية ربّانية قامت في بناء جملة، وفي بناء آية، وفي بناء سورة، وفي بناء القرآن كلّه﴾ (1)

واللفظة القرآنية ذات روافد للدلالة على معاني الهدي إلى الصراط المستقيم الذي جاء القرآن الكريم لتحقيقه، فلها بُعد صوتي تنغيمي وبُعد تركيبي بُنيت عليه وبُعد لُغوي تكونت فيه، فمن كل هذه الأبعاد ينحدر العطاء الدلالي للكلمة القرآنية، وعلى قدر وعي المتلقي لهذه الأبعاد والجمع بينها في تلقّيه يكون اقتداره على القرب من المعنى القرآني الكريم.

ومن أبرز العوامل التي أسهمت في اختيار الموضوع:

1. التعلق بالقران الكريم وحب البلاغة وعلومها.
2. الرغبة في تزويد المكتبة العربية بجهد جديد، علّه ينتفع به الدارسون والباحثون وتلك غاية عظيمة.
3. تنمية التذوق الجمالي من خلال الاطّلاع الواسع على النصوص القرآنية.
4. الإسهام في إحياء التراث البلاغي والأدبي ليواكب عصر التقدم وينافس الآداب العالمية الأخرى..

وقد آثرت هذا الموضوع لأني رأيت أنه يُسهم في دراسة العلاقات بين الآيات وإبراز دورها في خصوصية التراكيب.

ان الهدف من وراء هذه الدراسة معرفة أثر الدلالات التركيبية من خلال سياق الآيات، ومعرفة التناغم الإيقاعي بين حروفها وجُملها وتراكيب معانيها.

وسيقوم البحث بإذن الله، على المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على بيان أثر الدلالات التركيبية في توجيه معاني الآيات القرآنية من خلال القواعد البلاغية التي أقرّها علماء البلاغة والاستفادة منها في تحليل نصوص القرآن الكريم، وبيان مكامن الجمال فيها من خلال رؤية بلاغية شاملة تعتمد على الاستفادة من تلك القواعد في فهم نصوص القرآن الكريم، وبيان دلالاتها وفهم أسرارها وإيحاءاتها.

الخاتمة: لخصتُ فيها أهم ما جاء من النتائج.

وقد استعنت في إنجاز هذا البحث بمجموعة من المصادر والمراجع من أهمها كتب الجرجاني، مثل: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة. كما استفدت من بعض الكتب البلاغية أذكر منها: البلاغة والأسلوبية، وجواهر البلاغة.

ومن التفاسير مثل: تفسير روح المعاني، وتفسير الكشاف للزمخشري، وتفسير التحرير والتنوير، وتفسير أبي السعود.

الانزياح في إطاره النظري:

الانزياح في اللغة:

زاح الشيء يزيح زيحاً، أي بعُد وذهب. وأزاحه غيره وأزحت علته فزاحت. (2)

- وزوح: أزاح الأمر: قضاه، وأزاح الشيء: أزاغه من موضعه ونحّاه.
- زيح: زاح يزيح زيحاً، وزيوحاً، وزيحاناً وانزاح: بَعُد وذهب وأزحْتُهُ.(3)

الانزياح في الاصطلاح:

مصطلح الانزياح عسير الترجمة لأنه غير مستقر في متصوره لذلك لم يرض به كثير من رواد اللسانيات والأسلوبية، فوضعوا مصطلحات بديلة عنه، ولفظة انزياح ترجمة حرفية للفظة (Ecart) على أن المفهوم ذاته قد يمكن أن نصطلح عليه بعبارة التجاوز، أو أن نحيي له لفظة عربية استعملها البلاغيون في سياق محدد وهي عبارة (العدول). (4)

فالانزياح ظاهرة أسلوبية، ومكون من أخطر عناصرها ومكوناتها؛ لأنه لا يستمد منزلته ولا تصوره شأن غيره من وضعه في الخطاب الأصغر (النص)، بل يستمد هذه المنزلة من خلال علاقة الخطاب الأصغر بالخطاب الأكبر (اللغة) وهو الأهم (5)' وقد استعمل النقد الحديث أكثر من مصطلح للانزياح منها: الانحراف، والتجاوز والانتهاك وخيبة الوقع، وقد آثرنا استخدام الانزياح (Ecart) ليس لأنه الأشيع والأكثر دوراناً على الألسنة، وإنما لأنه بخلاف غيره يحمل دلالة توصيفية لا تمت إلى القيمة ولاسيما الأخلاقية منها بصلة.

فالانزياح وبكل بساطة هو خروج التعبير عن السائد أو المتعارف عليه قياساً في الاستعمال، رؤية ولغة وصياغة وتركيباً... الخ، وحين نقول الخروج لابد من نقطة هي الصفر يبدأ منها هذا الخروج أو ينزاح عنها وينحرف. (6)

يمثل الانزياح استراتيجية فاعلة في الخطاب القرآني كونه يطرح الدلالة وفق صور متعددة مما يجعل الإبلاغ يسير في حالة مرتبطة بالمتلقّي، فيكون التأثير حاصلاً بكثافة تمنح النص خصوصية التّجدّد القولي التي تثير في المتلقي عنصر البحث عن المعاني التي لا تظهر وفق مستوى التحقق الإدراكي الأوّلي.

ومن الناحية العملية يرى الأسلوبيون أنه كلما تصرف مستعمل اللغة في هياكل دلالاتها أو أشكال تراكيبها بما يخرج عن المألوف انتقل كلامه من السمة الإخبارية إلى السمة الإنشائية، فمثلاً في قوله تعالى: (فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ) [البقرة: 86]، هذه الآية تحوي انزياحاً أو عدولاً عن النمط التركيبي الأصلي بتقديم المفعول به أولاً، واختزال الضمير العائد عليه ثانياً، (فريقاً كذبتموه...) فهذا انزياح متصل بالتوزيع أي بالعلاقات الركنية معنى ذلك أن نفس الأدوات اللغوية المستعملة يمكن إعادة رصفها بما يزيل الانزياح وبالتالي السمة الأسلوبية.(7)

﴿ وقد حاول جاكبسون تدقيق مفهوم الانزياح فسماه خيبة الانتظار: من باب تسمية الشيء بما يتولد عنه ﴾ (8).

وقد أكسب مفهوم الانزياح الأسلوبية ثراء في التحليل إذ تتعامل المقاييس الاختيارية والتوزيعية على مبدئه فتتكاثف السمات الأسلوبية، وفي ضوئه يمكن إعادة وصف كثير من التحليلات البلاغية العربية، فمن ذلك باب تضمين الحروف، أي استعمال بعضها مكان بعض:

﴿ اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدى بحرف والآخر بآخر فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذاناً بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه وذلك كقول الله عز وجل اسمه: (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ) [البقرة: 186]، وأنت لا تقول: رفثت إلى المرأة وإنما تقول: رفثت بها أو معها لكنه لما كان الرفث هنا بمعنى الإفضاء، وكنت تُعدي (أفضيتُ) بـ (إلى) كقولك أفضيتُ إلى المرأة، جئت بـ (إلى) مع الرفث إيذاناً وإشعاراً أنه بمعناه ﴾.(9) فهذا الذي يتحدّث عنه ابن جنّي ليس سوى انزياح.

أنماط الانزياح:

تعوّد الدارسون أن يحصروا الانزياح في صور التعبير البيانية – البلاغية المختلفة، وركزوا خاصة على المجاز وفي مقدمته الاستعارة، ومن ثم ذهبوا إلى أنه وبالدلالة نفسها هو جوهر الشعرية مهملين بقية مكونات الشعرية أولاً وحاصرين الانزياح في مفهومه الضيق ثانياً، والانزياح يصيب سائر المكونات الشعرية الأدبية وعليه لابد من توسيع مفهومه أو دلالته:

- أولاً: الانزياح المجازي: وهو المتعارف عليه، فجميع أنماط الصورة الفنية البيانية بدءاً من التشبيه وانتهاءً إلى المجاز العقلي هي انزياحات ولا حاجة للتدليل.
- ثانياً: الانزياح الإيقاعي ولذلك ثلاث صور: أولاها الانحراف في الموازاة بين موسيقى الأداء وتوزيع المفردات، وثانيها الانحراف فيما يسمى بالنغمة النشاز التي تخرج عن الإيقاع الأصيل في تماثله وتناغمه وتوافقه، وثالثها إيقاع الصمت الذي يمكن أن نتخيله في انقطاع اللحن أثناء عرض الفلم السينمائي، فهذا الانقطاع أو الصمت هو جزء من بنية اللحن وسيرورته.
- ثالثاً: الانزياح اللغوي بجميع ضروبه: انزياح الصفات عن موصوفاتها، وانزياح الإسناد، وانزياح التركيب، وانزياح التقديم والتأخير في نهاية الجمل وانزياح حروف المعاني بتضمن معاني بعضها، وانزياح الوقف، وانزياح النحو بتكسير قواعده، أو تجاوزها أو عدم الالتفات إليها، وانزياح التناقض أو التضاد... الخ، وكلها أنماط لغوية تنحرف عن وضعها الطَبعيّ في مستوى التوزيع لتخضع إلى وضع آخر يمليه مستوى الاختيار أو مستوى التوظيف.
- رابعاً: الانزياح الدلالي ما بين الصوت والمعنى، أو المحمول والوسيلة، أو الدال والمدلول، وكلها مصطلحات تشير إلى عدم التطابق بين الحدين، فأحدهما ثابت هو (اللفظ الدال) وثانيهما (معوّم) طاف هو الدلالة، وغالباً ما يأتي سوء الفهم على صعيد التخاطب من هذا التباين بين الحدين المتقابلين.(10)

فأبواب المعاني يمتنع فيها إجراء الكلام على الأصل، وهي أبواب تقوم أساساً على الانزياح (العدول) في اللغة عن مستوى استخدامها المألوف. (11)

وقد كانت وسيلة البلاغيين في معظم هذه الأبواب التقدير، سواء بالزيادة أو بالحذف، أو بالتقديم والتأخير، أو بالتعريف والتنكير، وكل ذلك من خلال مفهوم يغفل ظاهر العبارة وصولاً إلى باطن يعتمد على تشكيل مثالي افتراضي، يستمد معالمه من تقديرات النحاة وتأويلاتهم. (12)

ومباحث المعاني عندما تعرض لدراسة المسند إليه في التعريف والتنكير تفترض وجود أصل مثالي لعكس كل من الحالتين، فإذا كان المسند إليه معرفاً فإن هذا التعريف جاء مخالفاً للأصل وهو التنكير، ومن هنا كانت له ميْزة فنية لا تتوفر مع تنكيره، وإذا جاء منكراً فإنه يخالف أصله – أيضاً – وهو التعريف، وإلا لما وجدنا تلك القيم الجمالية التي تفتقدها إذا عرّفناه. نقول هذا انطلاقاً من مفهوم البلاغيين لعلم المعاني الذي يبحث فيما وراء الإفادة الأصلية التي تهتم بها مباحث النحو واللغة.

أما مباحث التقديم والتأخير فتمثل في -علم المعاني -أهمية خاصة من خلال التركيب الذي يخضع بالضرورة لطابع اللغة ونمطها المألوف في ترتيب أجزاء الجملة، من حيث كان الانزياح (العدول) عن هذا النمط بمثابة منبهات يعمد إليها المبدع ليخلق صورة فنية مميزة.(13)

وبرغم إدراك البلاغيين أن اللغة العربية تتميز بعدم حتمية ترتيب أجزاء الجملة تبعاً لوجود حركة الإعراب التي تحدد المعنى. برغم ذلك نجدهم يفترضون أصلاً في التركيب يقاس إليه العدول عنه.(14)

ومن مباحث المعاني التي عُدَّ انزياحها (عدولها) عن النمط المألوف أساس ما فيها من قيمة بلاغية مبحث الإيجاز والإطناب، من حيث كانا ممثلين لانزياح عن أصل مفترض، هو المساواة بأن يكون لفظ الكلام بمقدار معناه، لا ناقصاً عنه بحذف للاختصار ولا زائداً عليه بمثل الاعتراض والتتميم والتكرار، أما التوسيع فهو أن يزاد في الكلام ما يصير به على الضد مما ذكر.(15)

وتبدو الناحية الشكلية مسيطرة على فهم البلاغيين لهذا المبحث وتحديدهم لأقسامه؛ فإذا كان الإيجاز يتمثل في الألفاظ القليلة والإطناب في تكثير الألفاظ، فلابد من إيجاد قسم ثالث يقاس إليه الطرفان السابقان هو المساواة.

ويبدو أن السكاكي كان أكثر البلاغيين فهماً واستيعاباً لهذا المبحث؛ حيث نظر لكل من الإيجاز والإطناب باعتبارهما أمرين نسبيين، فقد يكون ظاهر الكلام مطنباً وهو موجز بالقياس إلى كلام آخر، ولذا فإن تقرير مواضع الإيجاز والإطناب إنما يرجع إلى متعارف الأوساط.

ومن خلال مبحث المطابقة الذي أقامه النحاة واللغويون يظهر (الالتفات) كخاصية تعبيرية، تتميز بطاقاتها الإيحائية من حيث كان بناؤه معتمداً على الانزياح (العدول)، فهو عند البلاغيين ﴿العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول﴾.(16)

وطبيعة المطابقة بعلاقاتها السياقية تتمثل لغوياً في العلامة الإعرابية، كما تتمثل في الضمائر - التكلم والخطاب والغيبة – كما تتمثل في (العدد) من حيث الإفراد والتثنية والجمع، وتتمثل – أيضاً- في (النوع) من حيث التذكير والتأنيث، ثم تتمثل – أخيراً- في التعيين، من حيث التعريف والتنكير.

وهذه المطابقات تمثل النسق اللغوي المثالي في الأداء، الذي من خلاله كان (الالتفات) ظاهرة أسلوبية تعتمد على انتهاك هذا النسق بانتقال الكلام من صيغة إلى صيغة، ومن خطاب إلى غيبة، ومن غيبة إلى خطاب.. إلى غير ذلك من أنواع الالتفات.(17)

ومن مباحث المعاني التي تتميز بإمكاناتها الأسلوبية، مبحث الفصل والوصل؛ لاعتماده على الأدوات الرابطة، التي يطلق عليها حروف المعاني، والتي خرج بها البلاغيون عما تؤديه من وظيفة نحوية إلى أمور وراء ذلك، من حيث قدرتها على الربط بين الجمل والمفردات، ومن هنا كانت عملية الانزياح (العدول) بين هذه الأحرف ذات تأثير بالغ في الدلالة، إذ لا يكتمل معناها إلا بوجود التركيب المتكامل، فلا إفادة من حرف الجر إلا بوجود المجرور، ولا العطف إلا مع المعطوف، فلا بيئة لهذه الأحرف خارج السياق باعتبارها من أهم وسائل التعليق في اللغة.(18)

وإن مسألة الانزياح (العدول) في استعمال الحروف قد امتدت في مباحث النحو إلى خارج حدود العطف والجر، وتتبّعها بعض البلاغيين محاولين الإفادة من ذلك في خلق صلات متجددة في صياغة الجمل وعدم الاكتفاء بالصور الوظيفية (الجاهزة) لتلك الحروف، مما يُعدّ أحد عناصر البحث الأسلوبي الحديث.(19)

وإن آراء البلاغيين التي تندرج تحت الانزياح (العدول) يمكن أن تنحصر في ثلاثة محاور:

- الأول: التبديل أو تغيير المواقع ومن ذلك: التقديم والتأخير، والقلب أو العكس. تغيير وجه من وجوه الإعراب إلى وجه آخر، وتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث، والتعريف والتنكير، والكناية، الاستعارة، التشبيه، والتشبيه المقلوب.
- الثاني: الحذف، ويراد به إسقاط عنصر من عناصر البناء على مستوى الكلمة المفردة أو الجملة البسيطة أو الجملة المركبة.
- الثالث: الزيادة، حيث يزاد عنصر على عناصر البناء، وهو أيضاً، على مستوى الكلمة المفردة أو الجملة البسيطة أو الجملة المركبة.(20)

قد نقول إنّ الانزياح بطبيعته خرق للغة وتشويه لها وهدم، وإخلال في نظامها وتشويه، وهذا في حد ذاته صحيح بيد أن الأصح أن هذا الاختراق يعقبه توازن وتماسك ونظام وبناء يحل محل الزعزعة والبلبلة والتجاوز في إبلاغ الرسالة وتلك ميْزة اللغة – الخطاب الكبير، كما هي ميْزة النص – الخطاب الصغير، ميْزة اللغة لأنها تسمح بالابتعاد عن الاستعمال المألوف بوساطة الاضطراب ثم ما يلبث هذا الاضطراب أو الاختراق أن يصبح هو نفسه انتظاماً جديداً، وميْزة النص لأنه تأليف هو الآخر لحمل الأطروحات والنقائض في بنية لغوية يجمع فيها ما بين التعارض والائتلاف، الضغط التنازلي والدفع المتعالي، وبتصالح هاتين الميْزتين، ميْزة اللغة وميْزة النص، نزعم أن الانزياح ليس هدفاً نهائياً للشعرية وإنما هو وسيلة إلى هدف.(21)

ويبدو واضحاً من كل ذلك أن الانزياح هو ركيزة أساسية في تحليل النصوص، ذلك أن عملية إحياء النص تستوجب أن يمارس القارئ عملية انزياح مطّردة بين المعاني الإلزامية، والمعاني الممتدة، من أجل بلورة نوع الخطاب، ومن ثم الجنس والريجستر والأسلوب، وهذه هي الحيثيات الحقيقية التي تساعد الناقد على إصدار الحكم، وتؤكد نظرية الانزياحات على شيء واحد هو إمكان تقليل مساحة الفروق بين الاجتهادات في تفسير النصوص بإخضاعها لمنهجية تحليلية علمية ترتبط بهذا العالم الذي نعيش فيه ومعرفتنا به، ولكن العقبة بالطبع تكمن في حقيقة أن البلاغة في جوهرها تتعلق بكيفية استخدام اللغة، ولما كان استخدام اللغة يخضع إلى نزعات برجمانية واضحة فسيظل إنتاج النصوص وتفسيرها متلوناً بهذه النزعات البرجمانية، ومع ذلك فستظل نظرية الانزياح دائماً هي المقياس الذي سيوضح لنا درجة الشطط وزاويته، سواء كان ذلك في مجال إنتاج النصوص أم في مجال تحليلها أم في مجال الحكم عليها.(22)

الدلالة الإيحائية: هي مجموعة المعاني التي يمكن أن تتولد من اللفظة الواحدة داخل السياق، فيكون أحدُها المعنى المركزي للّفظة، وتكون المعاني الأخرى كالظلال له؛ لذا نجد أن للألفاظ دلالاتٍ واسعة يكون الإفصاح عن بعضها، دون غيرها، من خلال السياق، بل قد يُرشِّح السياق للفظة دلالة تغاير دلالاتها المعجمية كلَّها، فاللفظ لا يحكم عليه منفردا بمزية أو قبحٍ، وإنما يحكم عليه داخل السياق، وكلما كانت إيحائية الكلمة عالية، كانت قيمة تلك الكلمة فنيا عالية أيضاً(23)

ــ الدلالة الإيحائية للمفردة القرآنية:

في الاستعمال القرآني كثير من الصيغ والألفاظ توحي بأكثر من مدلول، وتنطوي على جملة من المعاني، ويأتي السياق ليرشِّحَ واحداً منها، وهذه ظاهرة شائعة، لا يمكن أن يُحيط بها بحث مهما كان واسعا، إلا أنني سأحاول ضرب بعض الأمثلة للمفردة القرآنية التي توحي ألفاظها بأكثر من المعاني المعهودة فيها، أي أن اللفظ

يدل على معانٍ أُخر تكون ظلالاً للمعنى المركزي، ومن ذلك لفظة (عبوسا) مثلا في قوله تعالى :{ إنا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً فَوَقَاهُمُ الله شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورا } [سورة الإنسان:10 -11]. عبوسا في اللغة تعني تجهَّم(24)، ولكن في السياق القرآني استعملت استعمالا مجازيا، إذ جاء وصفا ليوم القيامة، لما يُرى فيه الناس من حالة الفزع والرهبة التي تضيق على المرء، فتبدو هيأته عابسة، لما يُرى من شدة الموقف، فأُجريت الصفة المنطبقة على وجه الكافر في يوم القيامة، لما فيه من شدة وهول، فالمعنى نخاف يوما ذا عبوس(25). فكان اختيار لفظة (عبوسا) لما تثيره في النفس من فزع، فالعلاقة المجازية هي التي ربطت بين هيأة الوجه وما يحدث في ذلك اليوم من ذلك الزمن(26)، وهذا ما يجعلنا نستشعر وجود ترابط بين صوت الكلمة وما توحي به من معنى، فضلا عن المعاني الأخرى التي تولّدُها هذه اللفظة، إذ تعطي انطباعا عن أهوال يوم القيامة، وشدةِ الفزع الذي يستولي على الناس، فيجعل وجوههم منقبضة من شدة الخوف(27).

ومن الألفاظ التي استعملت في السياق القرآني فكانت لها دلالتها الإيحائية مثل استعمال ألفاظ خاصة بالحيوانات وإطلاقها على البشر، لما فيها من تراكم دلالي وإيحائي، كاستعارة لفظ (الخرطوم) في قوله تعالى :{ سنسمه على الخرطوم }، [سورة القلم:16]. ف(الخرطوم) أنف الفيل.

ففي السياق القرآني دلَّ الخرطوم على أنف الشخص الملقى في النار ــ استقباحا له ــ كذلك يوحي اللفظ بشدة الذلة، وغاية الإهانة، والتشويه(28).

فاختيار كلمة (الخرطوم)دون غيرها، أوحى بمذلة الكافر وقبحه في ذلك اليوم، وذلك أن العرب اعتادت على أن يكون الأنف رمزا للعزّ والحميّة، فاشتقوا منه الأنفة، وقالوا الأنف، فعُبِّر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة(29).

ومن الألفاظ التي أوحت بمعناها عبر السياق الذي وردت فيه لفظة (دمدم) في قوله تعالى:

{فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها فلا يخاف عقباها } [سورة الشمس:15-16]. أي أهلكهم ربهم، وأطبق عليهم العذاب بذنبهم، بقتلهم الناقة وتكذيبهم صالحاً(30)، فلفظة (فدمدم)أوحت بسرعة العذاب وتضعيفه، ومما أفاد هذا الأثر الدلالي ما للتكرار المقطعي فيه من دلالة إيحائية مشعرة بهول العذاب وتواليه بما يتناسب مع سوء الذنب الذي اقترفوه(31).

ومن الألفاظ التي أدت وظيفتها الفنية من خلال دلالتها الإيحائية قوله تعالى : {وتكون الجبال كالعهن المنفوش}[سورة القارعة: 4].فالعهن في اللغة هو الصوف المصبوغ ألوانا(32)، أما في قوله تعالى فقد شُبِّهت الجبال ب﴿العهن﴾، لأنها تحمل ألوانا عدة، فمن الجبال جدد بيض وحمر وغرابيب سود، فإذا بُسّت وطُيِّرت في الجو تشبَهت بالعهن المنفوش، لتفرق أجزائها إذا طيَّرتها الريح(33)، وبذا تكون الدلالة التي أعطتها الآية هي صورة تناثر الجبال بصورة دقيقة، فامتزجت ألوانُها لشدّة تناثرها، فبدت هيأتها وكأنها صوف منفوش مختلطة ألوانه، فدلّت كلمة ﴿العهن﴾ على صورة الجبال في ذلك اليوم(34).

ومن الألفاظ التي أضفى عليها السياق القرآني دلالات عديدة كلمة (الضّلال)، وهي تعني العدول عن الصراط المستقيم، ومن ثم توسعوا في استعمالها فاستعملت مع الخطأ أيضاً(35).أما في القرآن الكريم فقد وردت بدلالات متعددة حسب ما يقتضيه السياق القرآني، ففي قوله تعالى: {ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالا فهدى}، [سورة الضحى:6-7]. جُعلت (ضالا) صفة للرسول – صلى الله عليه وسلم – إلا أنه لم يرد معناها الحقيقي من عدم

الرشاد، وإنما أُريد بها دلالة التّحيُّر، فقال (ضالا)وأراد متحيِّراً(36)، وجاء اختيار (ضالا) دون متحيراً لما توحيه الضلالةُ من معنى الحركة والتَّرقُّب والشعور بالاغتراب بين قوم يغرقون بالجهل والعصيان.

فكثيرا ما تبتعد اللفظة عن دلالتها اللغوية الحقيقية إلى معنى مجازي فتكون دلالتها في الموضع الجديد أعمق في النفس، لما تعطيه من صورة جديدة في السياق، ففي قوله تعالى: { إن الإنسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد} [سورة العاديات:6 ،7،8]. وردت في القرآن الكريم لتدل على كفر الإنسان وجحوده(37)، فيُقال رجل (كنود) إذا كان مانعاً لما عليه من الحق، وقيل هو العاصي أو البخيل(38).

فالمعاني فيها متقاربة، فوقع كلمة(كنود) في النفس يُضفي على النص معاني إضافية يمكن استشعارها كاللؤم، والاعتداد بالنفس، والتضييق بالبخل، إذ يُعطي اللفظ دلالته الإيحائية من خلال هذا السياق، فضلاً عن وظيفته الإخبارية، فكلمة (كنود) بمعنى الأرض البور، المستعارة لوصف الإنسان، أعطت دلالة إيحائية في النفس لا تجدها في استعمال غيرها(39) .

والتعبير القرآني عمد أيضاً إلى التشبيه في أغلب الآيات التي وردت في رسم مشاهد القيامة وما يؤول إليه أمر الخلق في ذلك اليوم، إذ إن التشبيه يخلق صورة فنّية ترتسم في الخيال عن طريق الكلمات المنظومة في السياق القرآني، إذ تُغادر اللفظة معناها إلى معنى آخر كما في قوله تعالى { وسيرت الجبال فكانت سرابا}، [سورة النبأ:20].فهذه الآية في وصف حالة الجبال يوم القيامة، إذ تسير بأمر الله ثم تتلاشى وما يبقى منها شيء سوى منظر موهم بأثرها فنجد كلمة (سراب)يد منها دلالة ذهاب الشيء هباءً منثوراً(40)، وما هذه الدّقة المتناهية في الوصف إلا ميزة جمالية تميّز بها القرآن الكريم عن غيره، فنلاحظ أن المشهد يتأثر به الشخص الشديد العطش، وليس الناظر العادي؛ لأن الظمآن يتخيّل الماء أكثر من غيره بتفكُّره فيه، ثم يخيب أمله عندما يقترب فلا يجد ماءً، فكذلك الكافر يرى عمله مجدياً، ذا منفعة، وما ذلك الظن إلا كـ(سراب).

هذه نبذة عن الدلالة الإيحائية للفظة القرآنية داخل السياق وما تنتجه من معانٍ ودلالات تعبيرية تنير العقول، وتدخل القلوب، وتستشعر النفوس.

فصل دلالة الانزياح التركيبي

في النص القرآني

الانزياح التركيبي:

لعلّ ما يؤكد أهمية الانزياح أنه لا ينحصر في جزء أو اثنين من أجزاء النص، وإنما له أن يشمل أجزاء متعددة ومتنوعة، فإذا كان قوام النص لا يعدو أن يكون كلماتٍ وجملاً، فإن الانزياح قادر على أن يجيء في الكثير الكثير من هذه الكلمات والجمل، وهذا ما أُطلق عليه حديثاً "الانزياح التركيبي" لأنه يتعلق بتركيب اللفظة مع جاراتها في السياق الذي ترد فيه.(41)

وما يعنيني في بحثي هذا هو الوقوف على بعض مظاهر الانزياح التركيبي في النص القرآني، الذي يتميّز بالتنوّع في الأساليب، والتّصرُّف في التراكيب، التي كان لها أثر واضح في إثراء الدلالة في النص القرآني، والكشف عن قيمه وأسراره البلاغية، وهو ما سنعرض له في هذا الفصل، وقد رأيتُ أن أدرس هذه المظاهر فقط؛ لأنها تمثل ـــ في نظري ـــ بؤرة مباحث الأسلوب الانزياحي حول التركيب.

وبعد فإن الانزياح التركيبي ـــ في النص القرآني ـــــ يبدو جليّاً في أسلوب الالتفات، ويمكن لنا أن نضعه ضمن الأشكال الآتية:

الانزياح عن صيغة الخطاب إلى صيغة الغيبة:

يأتي الانزياح عن الخطاب إلى الغيبة في النص القرآني؛ ليحقق مزيَّة ما كان استئناف الخطاب في حالة الحضور- أي استمراره بضمير المخاطب – ليحققها، نحو قوله تعالى: {ولقد كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} ،[الملك: 18]. ولقد كذب الذين من قبلهم من الأمم، فكيف كان إنكاري عليهم بالتكذيب عند إهلاكهم، أي أنه حق. فبعد أن وجه الله – سبحانه وتعالى – إليهم الخطاب تذكيراً ، واستدلالا ، وامتناناً ، وتهديداً ، وتهويلاً ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ﴾ التفت بالانزياح عن خطابهم إلى الإخبار عنهم بحالة الغيبة، تعريضاً بالغضب عليهم بما آتوه من تكذيب الرسول – صلى الله عليه وسلم – فكانوا جديرين بإبعادهم عِزّ الحضور للخطاب، فلذلك لم يقل: (ولقد كذب الذين من قبلكم).(42)

ونحو قوله تعالى: {سلهم أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ (40) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ }، [القلم: 40، 41]. أزاح أسلوب الكلام من الخطاب إلى الغيبة لمناسبة وقوع آية (أم لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) بعد آية(سلهم أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ) ؛ لأن أخص الناس بمعرفة أحقّية هذا الإبطال هو النبي – صلى الله عليه وسلم – وذلك يستتبع توجيه هذا الإبطال إليهم بطريقة التعريض. فالدلالة أعندهم شركاء موافقون لهم في هذا القول يكفلون لهم به، فإن كان كذلك فليأتوا بشركائهم الكافلين لهم به إن كانوا صادقين.(43)، ونحو قوله تعالى: {انطلقوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29) انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ }[المرسلات: 29، 30]، الجملة من تمام ما يُقال لهم في ذلك اليوم بعد قوله: (انطلقواْ إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ) فيكون الانتقال من خطابهم بقوله: (انطلقوا) إلى إجراء ضمائر الغيبة عليهم، انزياحاً بالالتفات يزيده حُسناً أنهم قد استحقّوا الإعراض عنهم بعد إهانتهم بخطاب (انطلقوا).(44)

فالدلالة: انطلقوا إلى ما كنتم به في الدنيا تكذبون من عذاب الله لأهل الكفر به، (انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ) يعني تعالى ذكره: إلى ظلّ دخان ذي ثلاث شعب.(45)

في هذه الآيات الكريمة الدلالات التركيبية رسمت صورة ذهنية متعددة الأجزاء، تُبيّن كيفية عذاب الكفار في نار جهنم، وهذه الصورة مستمدة من واقعهم الذي يعيشون فيه.

الانزياح عن صيغة الغيبة إلى صيغة الخطاب:

يرد هذا اللون من الانزياح في النص القرآني لإفادة التهديد والتوبيخ، وذلك في سياق خطاب المولى – عز وجل – للكافرين، نحو قوله تعالى: {وذرني وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (11) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (12) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (13) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (14) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (15) } [المزمل: 11-15]. حدث في الآية انزياح بالالتفات، فبعد ما كان يتحدث عنهم بطريق الغيبة التفت إلى صيغة الخطاب، ولو جرى على الأصل لقال – سبحانه وتعالى – :(إنا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ) وهذا الالتفات له دلالة فنية بديعة، وهي التقريع والتوبيخ على عدم الإيمان.(46)

فخطابهم يعني إنا أرسلنا إليكم يا أهل مكة رسولا يشهد يوم القيامة بما صدر عنكم من الكفر والعصيان.(47) فهذا الخطاب للمكذبين أولي النعمة، وهو التفات جليل الموقع (كما أرسلنا إلى فِرْعَوْنَ رَسُولا) هو موسى - عليه السلام - وعدم تعيينه؛ لأنه معلوم غنيٌّ عن البيان.

ونحو قوله تعالى: {ثم ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى } [لقيامة: 32، 33].هذا وعيد من الله – عزّ وجلّ – على وعيد لأبي جهل، والكاف في (لك) ضمير خطاب للإنسان المصرح به غيره مرة في الآيات السابقة الذكر في السورة بطريق الغيبة إظهاراً وإضماراً، وعدل هنا عن طريق الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات لمواجهة الإنسان بالدعاء؛ لأن المواجهة أوقع في التوبيخ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: أولى له.(48)

ونحو قوله تعالى: {أانتم أشد خلقا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا }[النازعات: 27]. جاء إبطال شبهتهم بقياس خلق أجسادهم على خلق السماوات والأرض فقيل لهم (أانتم أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء) فلذلك قيل لهم هنا: أأنتم بضميرهم ولم يقل (آالإنسان أشدّ خلقاً) وما هم إلا من الإنسان، فالخطاب موجه إلى المشركين الذين عبر عنهم آنفاً في السورة بضمائر الغيبة من قوله: (يقولون) إلى قوله : (فإذا هم بِالسَّاهِرَة) وهو انزياح بالالتفات من الغيبة إلى الخطاب، أي أأنتم أيها الناس أشد خلقاً، أم السماء بناها ربكم ؟ فإن من بنى السماء فرفعها سقفاً، هيّنٌ عليه خلقُكم وخلقُ أمثالِكم، وإحياؤكم بعدَ مَماتِكم، وليس خلقُكُم بعد مماتكم بأشد من خلق السماء.(49)

وكما أفاد الانزياح عن الغيبة إلى الخطاب التهديد، والتوبيخ، والتقريع، فإنه في المقابل قد يدل على التكريم، والتشريف، والتلطُّف في الخطاب، ومن هذا القبيل ما جاء لغرض المباشرة والمصارحة اللطيفة باللوم الخفيف والعتاب الرقيق، نحو قوله تعالى: {عبس وَتَوَلَّى أَن جَآءَهُ الْأَعْمَى وما يدريك لَعَلَّهُ يَزَكَّى}، [سورة عبس:3،2،1]، حيث بدأ السياق الحديث بأسلوب الغيبة عن إعراض الرسول – صلى الله عليه وسلم – عن عبد الله بن أم كلثوم، ثم عتابه عتاباً مباشراً باستخدام أسلوب المخاطبة من أجل تنبيهه إلى واجب العناية بكلِّ من يقصده مهما كانت منزلته.

فسر هذا الانزياح يكمن في أن السياق سياق معاتبة ولطف، ولذلك غيَّب الخالق – عزَّ وجلَّ- نبيه- صلى الله عليه وسلم – عندما وصف عبوسه وتولّيه، فقال: (عبس وتولى) ولم يواجهه بقوله: (عبست وتوليت) تحنّناً بقلب نبيه من أن يخاطب بذلك الوصف، وإنما أخبر عمّا وقع فحسب، ثم التفت إليه بالخطاب فقصد بذلك المصارحة اللطيفة باللوم الخفيف والعتاب الرقيق، فقال: " وما يدريك لعلّه يزكى " لأوهم ذلك التغييب المستمر اللوم الشديد لنبيه – صلى الله عليه وسلم – فتحنّن في تغييبه، وتلطّف في خطابه، وهكذا أبرز الانزياح حالة الانتقال من لوم الرسول – صلى الله عليه وسلم – وعتابه، إلى التحنن في خطابه(50).

ونحو قوله تعالى: {كلا بل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ}، [الفجر: 19]. قُرئت بالتاء في (تُكرمون) على الخطاب بطريقة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى: {فأما الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاه} لقصد مواجهتهم بالتوبيخ، وهو بالمواجهة أوقع منه بالغيبة. فقوله (بل لا تكرمون اليتيم)..الخ انزياح وترك من ذمه بالقبيح من القول إلى الأقبح من الفعل، والالتفات إلى الخطاب لدلالة تشديد التقريع وتأكيد التشنيع.(51)

الانزياح عن صيغة التكلم إلى صيغة الغيبة:

يأتي هذا النوع من الانزياح ليزيد من تماسك الصياغة في الآية، ويهيئ المتلقي لاستقبال المعنى المقصود بتمامه، نحو قوله تعالى: ،{إنا أعطيناك الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ } [الكوثر: 1، 2]. قوله تعالى: (إِنَّا

أَعْطَيْنَاكَ) تكلم، وقوله: (لِرَبِّكَ) غيبة؛ لأن الاسم الظاهر من قبيل الغيبة، والأصل (فصلّ لنا) ففيه انزياح بالالتفات من التكلم إلى الغيبة.(52)

وفي الالتفات عن ضمير العظمة إلى خصوص الرب مضافاً إلى ضميره – عليه الصلاة والسلام – تأكيد لترغيبه – صلى الله عليه وسلم – في أداء ما أمر به على الوجه الأكمل.(53)

أي إنا أعطيناك يا محمد (الكوثر) والكوثر هو نهر في الجنة هو حوضه – عليه الصلاة والسلام – ترد عليه أمته، والكوثر تدل أيضاً: على الخير الكثير من النبوة والقرآن الكريم والشفاعة ونحوها، (فصلّ لربك) ويقصد بها والله أعلم صلاة عيد النحر، (وانحر) نسكِك.(54)

الانزياح عن صيغة الغيبة إلى صيغة التكلم:

ظهر الانزياح عن الغيبة إلى التكلم في نماذج عديدة من النص القرآني، منها إفادة التشريف والتكريم من الله إلى عباده، نحو قوله تعالى: {يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (30) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (31) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}[الفجر: 30-32]. الأمر في (ارجعي إِلَى رَبِّكِ) مراد منه تقييده بالحالتين بعده وهما (راضِيَةً مَّرْضِيَّةً)وهو من استعمال الأمر في الوعد والرجوع مجازاً، والإضمار في قوله: (في عبادي) وقوله: (جنتي) انزياح بالالتفات من الغيبة إلى التكلم وإضافة (جنة) إلى ضمير الجلالة إضافة تشريف، وهذه الإضافة هي مما يزيد الالتفات إلى ضمير المتكلّم حُسناً بعد طريقة الغيبة بقوله: (ارجعي إلى ربك)، أي يقول الله -سبحانه وتعالى- للمؤمن: (يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ) إما أن يكلمه إكراماً له كما كلّم موسى – صلوات الله عليه – أو على لسان ملك، والمطمئنة الآمنة التي لا يستفزّها خوف ولا حزن، وهي النفس المؤمنة أو المطمئنة إلى الحق التي سكنها ثلج اليقين فلا يخالجها شك، ارجعي إلى موعد ربك (راضية) بما أوتيت (مرضية) عند الله، فادخلي في جملة عبادي الصالحين، وانتظمي في سلكهم، وادخلي جنتي معهم، وقيل: النفس الروح، ومعناه: فادخلي في أجساد عبادي.(55)

الانزياح بالتعبير عن المستقبل بلفظ الماضي:

يرد هذا النوع من الانزياح في مواضع عديدة من القران الكريم، ولاسيما عند الحديث عن المشاهد المستقبلية في يوم القيامة، حيث تأتي الصياغة اللغوية – غالباً- مستخدمة بنية الأفعال الماضية لتفيد حتمية وقوعها، نحو قوله تعالى: {يوم يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وقال صوابا}، [النبأ: 38]. الفعل (وقال صواباً) مستعمل في معنى المضارع، أي: ويقول صواباً، فعبّر عنه بالماضي لإفادة تحقق ذلك، أي في علم الله سبحانه وتعالى؛ بمعنى يوم يقوم جبريل – عليه السلام – والملائكة مصطفين صفوفاً، لا يتكلم واحد منهم بطلب زيادة ثواب أو إنقاص عقاب إلا من أذن له الرحمن بالشفاعة، ونطق بالصواب، أي بالحق والصدق، بأن يكون المشفوع له موحّداً لله تعالى.(56)

ونحو قوله تعالى:{فأخذه اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: 25]. ورود فعل (أخذه) بصيغة الماضي مع أن عذاب الآخرة مستقبل ليوم الجزاء، مُراعىً فيه أنه لما مات ابتدأ يذوق العذاب حين يرى منزلته التي سيؤول إليها.

يقول تعالى ذكره: (فأخذه الله) فعاقبه الله، (نكال الآخرة وَالْأُولى) عقوبة الآخرة من كلمتيه؛(57) وهي قوله:(أنا رَبُّكُمُ الْأَعلى)، والأولى قوله:(ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)، [القصص: 38].

ونحو قوله تعالى:(حتى زرتم الْمَقَابر)، (سورة التكاثر: آية 2). التعبير بالفعل الماضي في قوله (زرتم) ولم يأت بها على زمن المضارع انزياح لتنزيل المستقبل منزلة الماضي؛ لأنه محقق وقوعه. فقوله تعالى: (حتى زرتُمْ الْمَقَابِرَ)، غاية، فيحتمل أن تكون غاية لفعل (ألهاكم)، أي دام إلهاء التكاثر إلى أن زرتم المقابر؛ أي استمر بكم طول حياتكم.(58)

ولكون زيارة المقابر على هذا الوجه عبارة عن الحلول فيها، أي قبور المقابر، وحقيقة الزيارة الحلول في المكان حلولاً غير مستمر، فدلالة الانزياح التركيبي في فعل الزيارة هنا التعريض بهم بأن حلولهم في القبور يعقبه خروج منها.

الانزياح بالتعبير عن الماضي بلفظ المستقبل:

من صور الانزياح في صيغ الأفعال، والتي تكشف عن تصادم الأزمنة على مستوى البنية السطحية، مما يدفع المتلقي إلى الانتباه والتفاعل مع النص، قوله تعالى:﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]. عبّر بصيغة المضارع في قوله (يكسبون) دون أن يأتي بها في زمن الماضي، فهذا ضرب من الانزياح يدل على تكرر ذلك الكسب وتعدّده في الماضي؛ فالفعل المضارع بطبيعته يدل على التجدد والاستمرار.

(كلا) ردع للمعتدي الأثيم عن ذلك القول الباطل وتكذيب له فيه، وقوله – عز وجل – : {كلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُون} بيان لما أدّى بهم إلى التفوه بتلك العظيمة أي ليس في آياتنا ما يصحح أن يقال في شأنها مثل تلك المقالة الباطلة، بل ركب قلوبهم وغلب عليها ما استمروا على اكتسابه من الكفر والمعاصي فحال بينهم وبين معرفة الحق(59)، فإتيان كلمة (يكسبون) في زمن المضارع كان لها هذا الوقع الجميل في التعبير عنهم، فإذا جاء بها في زمن الماضي لما أدّت هذا الغرض الفني بهذه الطريقة المُثلى؛ لأنه عبّر عن مدى كسبهم وتكرّره وعن كفرهم وإعراضهم.

الخاتمة

الحمد لله الذي أقسم بالقلم، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم محمد - صلى الله عليه وسلم – وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبع هديه إلى يوم الدين، وبعد:

فإنَّ الله كرَّم هذه الأمة بالإسلام، وأعزَّها بالقرآن، وسخّر لها اللسان العربي المبين، ليخدم هذا الدين.

فبعد هذه الرحلة في ظلال النظم القرآني، فإن اليقين يزداد، والثقة تتجدد بخلود المعجزة القرآنية، وعلو بلاغة القرآن الكريم، وأن نظمه لا يتفاوت، فكلّه في البراعة سواء، فدلالات تركيب الآيات تتجلى في حسن البيان وبراعة التعبير، ومتانة الربط بين أجزائها، واستخدام الألفاظ المختارة المنتقاة ودقة وضع اللفظة في مكانها، بحيث يؤدي تغيير مكانها إلى تغير المعنى المراد.

وهذه العلاقات التركيبية هي التي تسم الآيات بعلو درجتها في البلاغة- وبسبب هذه السمة انطوت على قوة تأثيرية تأسر عقل من يسمعها، وتستهوي فؤاده.

توصية:

إني أوصي الدارسين لكتاب الله سبحانه وتعالى أن يتجهوا نحو دراسة النظم القرآني وما يحويه من دلالات وتراكيب، فالدراسة في كتابه – جلّ وعلا – ومعرفة فنونه وأسراره أسمى وأعلى قدراً وشرفاً من أي علم آخر.

ومن أبرز نتائج هذه الدراسة:

1. النص القرآني أسلوب متفرّد في نظم تراكيبه، إذ لا نجد فيه لفظاً ينزاح عن موقعه أو دلالته إلا لغرض بلاغي يخدم المعنى ويثري الدلالة بحسب السياق الذي ورد فيه، فالألفاظ القرآنية تأخذ مكانها اللائق بها بحيث لو أُجري أي تبديل على أمكنتها لاختلّ النظم، ولما عاد له ذلك الرونق والالتحام والسبك الذي كان عليه من قبل.
2. إن اللفظة القرآنية ذات روافد للدلالة على معاني الهدي إلى الصراط المستقيم الذي جاء القرآن الكريم لتحقيقه، فلها بعدٌ صوتيٌ تنغيميٌ وبعدٌ تركيبيٌ بُنيت عليه وبعدٌ لُغويٌ تكونت فيه، فمن كل هذه الأبعاد ينحدرُ العطاء الدلاليُ للكلمة القرآنية.
3. إن التركيب النحوي للآيات يبرز مدى الاتساق بين الدلالات من خلال النظم البديع في كلماتها وتراصف معانيها.
4. تباين حضور الانزياح في الآيات القرآنية، فلم تكن أنماطه كلُّها حاضرة بشكلٍ واضح، وهذا يدل على أن الخطاب القرآني مرتكزاً على جوانب مهمة، تُثير المتلقِّي وتجعل فكره مُنقاداً للخطاب.
5. طرح أسلوب الانزياح مدى فاعلية دلالات التركيب في النص القرآني لا سيما في خطاب غير المسلمين، إذ جاءت الأنساق وفق متوالية دلالية سعت إلى إظهار جملة من المؤثرات الخطابية التي تنتمي أُطرها إلى المتلقِّي بخاصة غير المسلم.

فما هذا إلا جهد مقلّ ولا أدّعي فيه الكمال ولكن عذرني أنني بذلتُ فيه قصارى جهدي فإن أصبت، فذاك مرادي، وإن أخطأتُ فلي شرف المحاولة والتعلّم.

وأخيراً، بعد أن تقدمتُ باليسير في هذا المجال الواسع آملةً أن ينال القبول والاستحسان، فأسأل الله العفو والمغفرة والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. الأسلوبية والأسلوب، د. عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا الطبعة الثالثة، (د، ت).
3. أطياف الوجه الواحد، دراسات نقدية في النظرية والتطبيق، نعيم اليافي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، الطبعة الأولى، سنة 1997م.
4. الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، محمد حسين سلامة، دار الآفاق العربية، الطبعة الأولى، 2002م.
5. البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، الطبعة الأولى، سنة 1994م.
6. البلاغة والأسلوبية، يوسف أبو العدوس، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سنة 1999م.
7. تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، شرحه: أحمد صقر ـــ دار التراث ـــ القاهرة، الطبعة الثانية، سنة 1973م.

8. التعبير الفني في القرآن الكريم، بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1994م.
9. تفسير أبي السعود، أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، القاضي أبي السعود الحنفي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مطبعة السعادة، (د، ت).
10. تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، سنة 1984م.
11. تفسير الجلالين ولباب النقول في أسباب النزول على هامش القرآن الكريم، جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، تقديم: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: ابن كثير،(د، ت).
12. تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، (د، ت).
13. تفسير الوجيز على هامش القرآن العظيم، وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، (د، ت).
14. تفسير فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير، محمد الشوكاني، دار ابن أبي الأرقم للطباعة والنشر، بيروت،(د،ت).
15. الخصائص، ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، (د، ت).
16. دلائل الإعجاز في علم المعاني، الجرجاني، خرجه: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية ـــ صيدا ـــ سنة 2007م.
17. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، العلامة: أبي الفضل شهاب الدين الألوسي البغدادي، ضبطه: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د، ت).
18. شذرات الذهب، دراسة في البلاغة القرآنية، محمود توفيق سعد،ط1422،1م.
19. الصحاح في اللغة، للجوهري.
20. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلوي، القاهرة، المقتطف، سنة 1914م.
21. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، تحقيق: عادل عبد الموجود، علي معوض، مكتبة العبيكات، الطبعة الأولى، سنة 1998م.
22. لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: عبد الله الكبير، محمد حسب الله، هاشم الشاذلي، دار المعارف، (د، ت).
23. مختار القاموس، الطاهر أحمد الزاوي، الدار العربية للكتاب، سنة 1983-1984م.
24. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات النسفي، مطبعة البابي الحلبي،القاهرة، (د،ت).
25. معاني القرآن، الفراء، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، 1980م.
26. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ضبط: هيثم طعيمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 2002م.
27. نظرية اللغة في النقد العربي، عبد الحكيم راضي، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة 1980م.
28. النقد الأدبي الحديث، يوسف عوض، دار الأمين، القاهرة، سنة1994م.

29. الرسائل والأطاريح:

30. أسلوبية الانزياح في النص القرآني، أحمد الحرشة، أطروحة دكتوراة، جامعة مؤتة، سنة 2008م.
31. التطور الدلالي للألفاظ في النص القرآني،جنان منصور الجبوري، أطروحة دكتوراة، سنة 2005م.

الهوامش

1. شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرانية، محمود توفيق محمد سعد ، ط1، 1422، ص 34
2. الصحاح في اللغة، الجوهري.
3. مختار القاموس، الطاهر أحمد الزاوي، الدار العربية للكتاب، 1984م: ص282- 283.
4. ينظر: الأسلوبية والأسلوب، د.عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ط3، ص162.
5. ينظر: أطياف الوجه الواحد، نعيم اليافي، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، ط1، 1997م: ص91.
6. ينظر:أطياف الوجه الواحد ، ص91- 92.
7. ينظر: الأسلوبية والأسلوب، ص163.
8. المصدر نفسه.
9. الخصائص، ج2، ص308.
10. ينظر: أطياف الوجه الواحد، ص94- 96.
11. ينظر: البلاغة والأسلوبية ، محمد عبد المطلب ، الشركة المصرية للنشر، لونجمان، ط1، 1994م: ص270.
12. ينظر: نظرية اللغة في النقد العربي ، عبد الحكيم راضي، مكتبة الخانجي ، القاهرة، 1980م: ص202.
13. ينظر: البلاغة والأسلوبية ، محمد غبد المطلب، ص271- 272.
14. ينظر: المصدر نفسه، ص282.
15. ينظر: البلاغة والأسلوبية، ص275
16. الطراز، ج2، ص132.
17. ينظر: البلاغة والأسلوبية ، محمد عبد المطلب، ص276- 277.
18. ينظر: البلاغة والأسلوبية ،محمد عبد المطلب ص284- 285.
19. ينظر: المصدر نفسه، ص288.
20. ينظر: العدول، ص83.
21. ينظر: أطياف الوجه الواحد، ص102- 103.
22. ينظر: النقد الأدبي الحديث، يوسف عوض، دار الأمين، القاهرة، 1994م، ص151.
23. ينظر: التطور الدلالي للألفاظ في النص القرآني، جنان منصور الجبوري، جزء من أطروحة دكتوراة فلسفة في اللغة العربية وآدابها، ، كلية التربية، جامعة بغداد، 2005م، ص 123-124.
24. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، (عبس).
25. ينظر: فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير، محمد الشوكاني، دار ابن أبي الأرقم للطباعة والنشر، بيروت، (د، ت)، ص 348.
26. -ينظر: االتعبيرالفني في القرآن الكريم، بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1994 م، ص 188
27. ينظر: التطور الدلالي، ص126 – 127.
28. ينظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ، شرحه: أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط2، 1973م، ص156– 157.

29.ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ضبط: هيثم طعيمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2002م، ص146، والتبيان في تفسير غريب القرآن، شهاب الدين المصري، تحقيق: فتحي الدابولي، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط1، 1992م، ج1 ، 421.
30.ينظر: معاني القرآن، الفراء، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1980م، ج3، 269.
31.ينظر: التطور الدلالي، ص 132.
32.لسان العرب (عهن).
33.ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات النسفي، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، (د، ت)، ج4، 278.
34.ينظر: التطور الدلالي، ص 157.
35. ينظر: لسان العرب (ضلل).
36. ينظر: تفسير أبي السعود، القاضي أبي السعود، تحقيق:عبد القادر عطا ، مطبعة السعادة ، ج5، ص544-545، والتحرير والتنوير، ابن عاشور، الدارالتونسية للنشر، 1984م: ج30، ص 399-400.
37. ينظر: لسان العرب(كند).
38. ينظر: المفردات في غريب القرآن، ص 460.
39. ينظر: التطور الدلالي، ص180.
40. ينظر: التطور الدلالي، ص158 – 159.
41. ينظر: أسلوبية الانزياح، ص 98.
42. ينظر: تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي تقديم: عبد القادر الأرناؤوط ، الناشر: ابن كثير، ج29. ص561. وانظر التحرير والتنوير. ج29. ص36.
43. ينظر: الجلالين ، ج29، ص564، والتحرير والتنوير، ص96.
44. ينظر: التحرير والتنوير، ج29، ص439.
45. ينظر: تفسير الطبري، ج23، ص600.
46. ينظر: الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، ص375.
47. ينظر: روح المعاني، ص120.
48. ينظر: تفسير الطبري، ج23، ص524، والتحرير والتنوير، ج29. ص363.
49. ينظر: تفسير الطبري، ج24، ص88، والتحرير والتنوير، ص83
50. ينظر: أسلوبية الانزياح في النص القرآني، ص 120.
51. ينظر: روح المعاني، ج15، ص341.
52. ينظر: البلاغة والأسلوبية، أبو العدوس، ص78.
53. ينظر: روح المعاني، ص481.
54. ينظر: تفسير الجلالين ، ج30، ص603.
55. ينظر: الكشاف، ج6، ص374.
56. ينظر: التفسير الوجيز على هامش القرآن الكريم، ج30، ص584.
57. ينظر: تفسير الطبري، ج24، ص84.

58. ينظر: التحرير والتنوير، ج30، ص520.

59. ينظر: روح المعاني، ج15، ص279.